القِيَم الحديثة ومكانتها في التربية

الأب جان دُكْرُويه اليسوعيّ*

نبني شخصيّتنا باتّخاذنا، كمبادئ نستند إليها في أعمالنا، قِيَمًا تفرض نفسها على أحكامنا، على تقديرنا ما ينبغي أن نعمله أو ألّا نعمله. وتلك القِيَم تؤثّر فينا بقدر ما يرتبط بعضها ببعض بشيء من التناسق. هذا وإنّ نظام القِيَم الذي نعتمده يطابق نظام الجماعة الثقافيّة التي نعيش فيها أو لا يطابقه.

إنّ الثقافات تتطوّر، لا بل يندر ألّا تعاني التقلّبات. فالثقافة الغربيّة تعاني، منذ القرن الثامن عشر، تخلّيًا عن ماضيها سُمِّي الانتقال إلى الحداثة. ولقد ازداد هذا التخلّي بعد منتصف القرن التاسع عشر، عند ظهور فلسفة القِيَم. قبل ذلك، كانت النظرة إلى ما ينبغي فعله لا تُتَّخذ انطلاقًا من الشخص، بل كان على الشخص أن يتقيَّد بقواعد المجتمع وعاداته، أو بمشيئة الله المعبَّر عنها في طبيعة الإنسان وفي التقاليد الدينيّة. أمّا اليوم، فإلى الشخص بالأحرى يعود أن يكون حرًّا في إعداد القِيَم التي يريد أن يُخضع حياته لها. فكيف نفسح المجال «للقِيَم» في التربية، وفي تربية مسيحيّة، متجنّبين ما في الاستقلال الذاتيّ من انحرافات تؤدّي الحداثة إليها؟

سأستهلّ هذا التفكير بالاستشهاد بنتائج تحقيقَيْن من التحقيقات

(*) Jean Ducruet الرئيس الأسبق لجامعة القدّيس يوسف في بيروت، ومدير مركز أخلاقيّات الحياة الجامعيّ.

الكثيرة التي تمّت في شأن القِيَم الحديثة. وسنحاول بعد ذلك أن نوضح قليلًا فكرة «القيمة» هذه، وسنرى عندئذ كيف نوفّر لها مكانًا في التربية.

١ - نتائج تحقيقات في شأن القِيَم الحديثة

إليكم أوّلًا بعض المقتطفات من نتائج تحقيق لمؤسّسة «دراسة في القِيَم الأوروبيّة» (European Values Study)، وهو يعني تسعة بلدان أوروبيّة. ولقد صدر في ١٩٨٣ بعنوان قِيَم الزمن الحاضر. والشواهد الوجيزة التي نذكرها تختصّ بالقِيَم التي تعود إلى الشخص والعائلة والعمل والأخلاقيّة[1]: «في نظر العديد من الأوروبيّين، تكمن القيمة المركزيّة في الشخص، أي في شخصي. لعلّ هذه الفكرة وهذه القيمة تنتشران حاليًا في كلّ كوكبنا، مؤدّيتَين في سيرهما إلى عواقب لا تُقدَّر بسهولة... فإنّ فكرة شخص، هو شخصي أنا بالضبط، تجرّ معها أنواعًا من القِيَم المرتبطة بها...». وهنا نطرح هذا السؤال: هل يستطيع الإنسان أن يعزل شخصه؟

«تبدو العائلة تلك المؤسّسة التي تبلغ القيمة الأسمى... من الراجح أنّنا نرتكب خطأً إن اعتقدنا أنّ ذلك التقدير الذي نكنّه للعائلة ينبع من موقفٍ حنين إلى تقليد الماضي وقِيَمه. إنّه ينبثق بالأحرى من كون العائلة وسطًا مُغلقًا على نفسه، ودافئًا وواقيًا، مركزه هو الشخص. فمن وجهة نظر الفرد بصفته شخصًا، ليس هو أحد عناصر العائلة، بل العائلة هي جزء شبه مركزيّ من شخصيّته». وهنا نطرح هذا السؤال: هل العائلة هي معقل أنانيّاتنا أم مصدر محبّتنا؟

«إنّ الحِرفة في الغرب هي جزء من تحديد الشخص، لأنّ الشخص يجد نفسه فيها ويتطابق معها؛ فهو يرى فيها أسباب رضًى ذاتيّ... وهو في حاجة إلى احترام الآخرين، وإلى الاعتبار الذي يأتيه من وظيفته. فجميع تلك العناصر هي إذًا قِيَم». وهنا نطرح هذا السؤال: هل يجب

(١) Jean STOETZEL, *Les valeurs du temps présent: une enquête européenne*, P.U.F. 1983, postface, pp. 291-298.

البحث عن قيمة العمل في رضى العامل الذاتيّ فقط، أم في الخدمة المؤدّاة إلى المجتمع أيضًا، وفي المشاركة في عمل الله؟

«في معنًى من المعاني، فإنّ الأخلاقيّة أيضًا هي عنصر من عناصر الشخص. إجمالًا، قليل هو عدد الذين لا يعذّبهم ضميرهم الشخصيّ أبدًا... ومع ذلك، فإنّ اليقينيّات الأخلاقيّة تذوب في أوروبّا، لأنّ ربعَ الأوروبّيّين يكادون أن تكون عندهم مبادئ أكيدة للتمييز بين الخير والشرّ». وهنا نطرح هذه الأسئلة: أيجب أن يُترك الضمير وشأنه أم يجب أن يُهذَّب ويُنوَّر؟ وهل يستطيع الإنسان أن يكتفيَ بالمبالاة الأخلاقيّة؟

إنّ تلك النتائج التي أسفر عنها تحقيق أوّل في خطوطه العريضة، أيّدها، لا بل شدَّد عليها، في ١٩٩١، أي بعد عشر سنوات، تحقيق آخر قامت به المؤسّسة نفسها وشمل ستّة عشر بلدًا أوروبيًّا. لكنّي سأكتفي باستشهاد يتعلّق باستقلال الإنسان الذاتيّ[٢]: «إنّ عقليّة الأوروبّيّ يتدنّى شيئًا فشيئًا تأثّرها بالمؤسّسات التي تمثّل عادةً، كالكنيسة، النظام والسلطة... فيتجه تيدُّل في النظرة إلى مضمون الإيمان وإلى تفهّم الله نفسه. فإنّه تعالى، رمز عدم حرّيّة تقرير المصير، يفقد ذاتيّته، في حين يُعلن الإنسان، يومًا بعد يوم، حكمه الذاتيّ». وهنا نطرح هذا السؤال: كيف لا نُعلن حكمنا الذاتيّ نحو إله فقد ذاتيّته، ولم يعد له مع الإنسان تاريخ مشترك؟

ونُقفل هذه التحقيقات عن قِيَم زماننا الحاضر بذكر جملتَين نقتبسهما من كتاب ألان تورين في المقابلات، علمًا بأنّ مجرّد عنوانه، البحث عن الذات، لا يخلو من المعنى[٣]: «في أيّامنا، نرى أنّ الاهتمام بالذات،

---

(٢) Jean KERKHOFS, «Tensions entre échelles de valeurs en Europe», in *Lumen Vitae*, septembre 1994, p. 276. L'enquête 1990-91 de l'*European Values Study* a été analysée par P. ESTER, *The individualizing Society*, Tilburg University Press, 1993.

(٣) Alain TOURAINE, Farhad KHOSROKLAVAR, *La recherche de soi, dialogue sur le sujet*, Fayard 2000, pp. 113, 114, 303.

كقيمة مركزيّة، هو حاضر في كلّ مكان». «إنّ موضوع الفَرْق أو الغيريّة لم يكن هناك داعٍ لوجوده في الماضي، بما أنّ المبادئ المتعالية كانت تفرض وحدة للكائنات البشريّة تتجاوز فوارقهم. أمّا اليوم فإنّ المشكلة، بعد زوال التعالي، أصبحت بالأحرى: كيف نستطيع أن نعيش معًا، ونحن مختلفون، أي كيف يمكن الاتّصال بين أناس مختلفين؟». وهنا نطرح هذا السؤال: إن لم يكن الناس إلّا مختلفين، فإنّهم لا يستطيعون إلّا أن يتجانبوا. ولكن هل هم ليسوا إلّا مختلفين؟

«لا أريد أن أُطيل الكلام على الخير والشرّ، لأنّ هاتَين الكلمتَين هما سبب غموض أكثر ممّا هما سبب وضوح. إذا كانت فكرة المجتمع مهمّة في الماضي، فلأنّها حدّدت الخير والشرّ بالاستناد إلى المجتمع أو إلى الدولة، كما أنّ مجموعات أُخَر سبق لها أن حدّدتهما بالاستناد إلى التقليد أو إلى الجماعة أو إلى الله... أمّا أنا فإنّي أرى أنّ الذات هي مبدأ الحُكم الأخلاقيّ...». وهنا نطرح هذا السؤال: مع أنّي لا أزال إلّا إنسانًا، فهل أستطيع أن أعتبر نفسي المرجع الوحيد لجميع أحكامي؟

في النقاش الذي يلي هذا العرض، يعود إليكم أن تحدّدوا إلى أيّ درجة ترون أنّ نظام القِيَم الذي ورد ذكره هو، منذ اليوم، نظامكم في لبنان أو يُخشى أن يكون في الغد. إنّ نتائج التحقيقات الأوروبيّة التي استشهدنا بها هي، على كلّ حال، تعبّر إلى حدّ بعيد عن مفهوم حديث للقِيَم، يجب علينا الآن أن نوضحه إلى حدّ ما.

٢ – خواطر في القِيَم

نستهلّ هذا التفكير بردّ فعلنا على شاهدة نقتبسها من كتاب لريمون بولان نجد عنوانه ذا مغزى: إبتكار القِيَم. يعترف المؤلّف منذ البدء بأنّ «المنعزل» وحده يستطيع أن يعتنق مفهومه للقِيَم، ثمّ يوضح طريقته على الوجه التالي: «إنّ المنعزل توخّى استقلاله ليتحرّر من جميع الروابط ومن جميع القِيَم التي فُرضت من قِبَل أشياء أو من قِبَل أناس». «فهو سيتخلّص

من نفوذ الكنائس القائمة ولن يعترف بالعقائد... ويحصر كلّ شعور دينيّ يداخله في حاجة من حاجات عقله أو في حسّ داخليّ صوفيّ غامض، لا يكفي لإبلاغ شريعة أو ليكون مرشدًا». «وفي العزلة التي يختارها، يكون مستعدًا للبحث عن قِيَم يكون لها أساس موضوعيّ ويكون هو على يقين مطلق منها». «من حقّ كلّ إنسان أن يختار اتّجاه تعاليه الشخصيّ وأهمّيّته وأن يقرّر ما يختصّ بقِيَمه وأعماله، في عدم تأكّد أساسيّ يتجاوز كلّ ثبات»[٤]. وبكلمة واحدة، يعود إلى كلّ واحد، في انعزال تامّ، أن يبتكر قِيَمه الشخصيّة.

إنّ نصّ پولان هذا، الذي تذكّر نبراته إلى حدّ ما بسارْتر ونيتْشه، بالرغم من نقائصه الواضحة، يفيدنا على الأقلّ، لأنّه يعترف بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون قِيَم، ويلفت انتباهنا إلى أنّنا نساهم، إن لم يكن في إعداد تلك القِيَم، فأقلّه في استقبالها. ذلك بأنّنا نجد، قبل الاسم «قيمة»، الفعل «قيَّم» (Évaluer)، كما أنّنا نجد، بعد الاسم «قيمة»، الفعل «زاد قيمة» (Valoriser). أفليس هذان الفِعْلان فِعلَي نشاط، فِعلَي نشاطنا؟ لكنّ مُنعزِل پولان، بوضع نفسه عمدًا في الفراغ المحض، وبتخلّصه، كما يقول، من كلّ صلة بالأشياء والناس والله، يحكم على نفسه بعمى القِيَم، لأنّه لا يستطيع أن «يقيِّم»، ما لم يحفظ شيئًا يقيّمه، ولا يستطيع أن «يزيد قيمة شيء» إلّا انطلاقًا من هذا العالم الذي يريد أن ينعزل عنه، وهذا أمر غير معقول. إنّ الإنسان، أرضِيَ به أم لم يرضَ ليس هو الله، بل هو كائن في وضع معيَّن، يتضامن مع عالَم (أشياء وأشخاص)، لا يولد حين يفتح عينيه ولا يزول حين يُغلقها. فالإنسان لا يستطيع أن يبتكر قِيَمًا انطلاقًا من لا شيء، كما أنّه لا يُدرك حرّيّته في الفراغ.

بعد أن أشرنا بإيجاز إلى انحرافات الحداثة، لا يسعنا إلّا أن نشارك

---

(٤) Raymond POLIN, *La création des valeurs*, P.U.F. 1952, pp. 11 et 298, notamment cité par Paul VALADIER, *L'anarchie des valeurs*, Albin Michel, 1997 pp. 96-98.

بوجه أفضل في الاهتمام الذي توليه هذه الحداثة لمسؤوليّة الشخص في وضع بنية لحياته الأخلاقيّة. سنفعل ذلك بتحليل استقبالنا القِيَم انطلاقًا من صلتنا بالعالم[٥]. وسنلاحظ بعد ذلك أنّ هذا النشاط يوضح صلتنا بالله في حياتنا التي نعيشها بالإيمان.

أ - إستقبالنا القِيَم في صلتنا بالعالم

ليس أمرًا سهلًا أن نحلّل استقبالنا القِيَم، لأنّه لا يقلّ تشعّبًا من صلتنا بالعالم. ففي سلوكنا بخصوص الأشياء والأحداث والعلاقات البشريّة، تبرز شيئًا فشيئًا لضميرنا قِيَم يعود إلينا بملء حرّيّتنا أن تبنّاها أو لا، ويعود إلينا غالبًا أن نصنّفها. علمًا بأنّ حرّيّتنا تثبّت وشخصيّتنا تجد بنيتها عَبرَ تلك الخيارات.

للأشياء تماسك منذ الآن في حدّ ذاتها، فهي لا تخلو من المعنى، لأنّها أغراض لها موضوعيّة ولها معنى بالنسبة إلينا، وهي موضع رغباتنا، فتتّخذ قيمة في نظرنا. لا نستطيع أن نتكلّم على قِيَم من دون حضورنا في العالَم، ولكن هذا الحضور، على عكس ذلك، لا يتكر وحده قِيَمًا. على كلّ حال، فإنّ تملّك الأشياء هو صلتنا الأولى بالعالم. وهذا ما يعرفه الولد منذ نعومة أظفاره وما تعبّر عنه بقوّة كلماته الأُوَل «هذا لي». ويفضل هذا التملّك، يدعم الإنسان نفسه ويجد ثباته (الانتقال مِن لي إلى أنا)، ويؤكّد قيمة شخصه المطلقة، والحصول على الأشياء في خدمة الكيان. ولكن، إن كان تملّك الأشياء في خدمة ازدياد الكيان، في خدمة الشخص الذي يتكوّن، فإنّ هذا التملّك لا يمكن أن يتمّ بوجه صحيح إلّا بقدر ما يخدم الشخص، وعليه أن يكون محدودًا إن أخذ يُضرّه. لكنّ الطفل نفسه، إن سيِّبت له شراهته تُخمة، يستطيع أن يفهم أنّ قيمة الشوكولا وقيمة شخصه لم تُراعَيا. ومع التقدّم في السنّ، يتوجّب عليه أن يكتسب سيطرة على تملّك الأشياء، لا بل أن يكتشف أنّ عدم تملّك الأشياء

(٥) Roger MEHL, *De l'autonomie des valeurs*, P.U.F. 1957, ch. II, «La particularité de l'existence des valeurs», pp. 37-104.

والتخفّف منها إلى حدّ ما، قد يخدم على وجه أفضل ثبات شخصه، فإنّ قيمة الشخص من شأنها أن تجعل قيمة الأشياء نسبيّة[٦].

أمّا الأحداث التي قد تحصل لنا، فإنّها توجَد في حدّ ذاتها، كالأشياء، ولا سيّما الأحداث التي لسنا مدينين لها حقًّا بأيّ شيء والتي تقع فوق رؤوسنا، كالمرض والجِداد والتسريح من الوظيفة. إنّها وقائع لا نستطيع أن نتلاعب بها على هوانا. لكنّها مع ذلك ليست مجرّد اصطناع، بل هي تحمل معاني كثيرة وغالبًا متناقضة، علينا أن نختار بعضها. إنّ الحدث الذي يصيبنا لا يصبح إنسانيًّا ولا يوقف خارجيّته التي لا تطاق، إلّا إنْ استقبلناه وتملّكناه وأولياه قيمة بإدخاله في نسيج حياتنا. إذ إنّ حياتنا لا تتكوّن ممّا «يحصل لنا»، بل بالمجال الذي نُفسحه له، بالقيمة التي نوليها إيّاه بعد نوات الأوان[٧].

لسنا على صلة بالأشياء والأحداث وحسب، بل نحن مرتبطون أيضًا بالآخرين، وقبل كلّ شيء بآخري الجوار، الذين يشير پول ريكور (Paul Ricoeur) إليهم بضمير المخاطب المفرد «أنتَ». فإنّ الصلة بالآخرين هذه، على غرار العلاقات بالأشياء والأحداث، تكوّن شخصنا. فلا نتكوّن خارجًا عن تلك الصلة بالآخرين في انعزال مطلق يتوجّب علينا، انطلاقًا منه، بعد نوات الأوان، أن نُقيم روابط بالآخرين. لا نستطيع أن نكوّن أنفسنا كلّيًّا وماديًّا وفكريًّا وروحيًّا خارجًا عن صلة بآخري الجوار، سواء أنتج هذا الجوار من القرابة أو الصداقة أو الحبّ، وتتمّ هذه الصلة في واقع حياة عاديّة وفي تبادل اعتراف الواحد بالآخر. فلا يكون المقصود عندئذ تفعيل حرّيّتي وحسب، كما رأينا حتّى الآن، بل، كما كتب پول ريكور، «إيصال حرّيّة الآخر بصفتها شبيهة بحرّيّتي»[٨]، شبيهة

(٦) J. LEDU, *L'appropriation, statut de la liberté humaine*, manuscrit s.d.

(٧) Maurice BELLET, «S'offrir aux événements», dans *Christus*, janvier, 1965 n° 45.

(٨) Paul RICOEUR. *Avant la loi morale: l'éthique*. Encyclopaedia Universalis. Symposium, les enjeux, Paris, 1988; et *Soi-même comme un autre*, Le Seuil, 1990.

في الغيريّة. هناك شيء من الغيريّة، وشيء من الموضوعيّة، كما رأينا، حاضر منذ الآن في الأشياء والأحداث التي عليَّ أن أتملّكها: لا نستطيع أن نعمل أيّ شيء باستخدام الأشياء ولا نستطيع أن نقول أيّ شيء للأحداث. لكنّ الغيريّة هنا هي غيريّة شخص آخر لا يخضع إذًا للتملّك. نحن هنا في العلاقات بين الذوات وبين الأشخاص فلم يعد للقِيَم مجرّد دور وساطة بين موضوعيّة الأشياء وذاتيّتي، بل قد اتّخذت دور وساطة بين ذاتيّتين. من جهة، فإنّ القِيَم التي أمنحها شخصيًّا ميلي تُفسح المجال لتقييم الشخص الآخر، وهذا ما يحدّ من استبدادي. ومن جهة أخرى، تبرز قِيَم بين أشخاص، وهي احترام الآخَر، والاهتمام بالآخر والمسؤوليّة عن الآخَر.

لا يمكن أن تأخذ الحياة مجراها في حضن علاقات شخصيّة وحسب، في مواجهة الحبيب أو الصديق أو القريب، لأنّها تأخذ مجراها أيضًا في إطار مجتمع مؤسَّس. وهذا المجتمع هو مجتمع أشخاص يدور الكلام عليهم ويُحسب لهم حساب، مع أنّهم لا يتمتّعون في نظرنا بذلك الحضور المباشر والثابت الذي يمكّن من إقامة علاقات شخصيّة. فلا يعود المقصود «أنا» و«أنتَ»، بل «هو»، في صيغة الضمير التي يتكلّم عليها پول ريكور. والشخص الثالث هذا لا يُلحَق به مباشرةً، بل في مجهوليّة المؤسَّسات. ونعني بالمؤسَّسات بنى «العيش المشترَك» في مجتمع من المجتمعات. أمّا الدور الذي تقوم به هذه المؤسَّسات فهو التمكين من وجود جماعة أشخاص، لا تستطيع أن تتكوّن ولا أن تثبت في الزمن، من دون وجود حدّ أدنى من الاستناد إلى قِيَم مشتركة. والقِيَم الاجتماعيّة هذه، كالعدالة والمساواة، تضع بنية عمليّة لحياة الأفراد والمجموعات، بانقلابها إلى قوانين وشرائع وتحظيرات. يكفي أن نذكّر بالتحظيرات الكبرى الثلاثة التي نجدها في حياة المجتمع، وهي تحظير القتل، وتحظير الفحشاء، وتحظير الكذب: «لا تقتل»، «لا تجامع على هواك»، «لا تكذب». هذه تحظيرات ثلاثة، إن لم تُراعَ، يستحيل العيش في المجتمع، وهي لا تعني احترام الأشياء، بل احترام الأشخاص،

وتذكّر بحقيقة لا يمكنني أن أتهرّب منها، بل يجب عليّ أن أزيد قيمتها: «الآخرون موجودون».

وأخيرًا، يعيش الإنسان في الزمن وفي عالم متعدّد الثقافات. ففي زمان واحد ومكان واحد، يعيش أيضًا في دوائر نشاط مختلفة لا تتطابق فيها تمامًا مبادئ استناد العمل، ولا نماذج المنطقيّة. فلا يصحّ الاعتقاد أنّ القِيَم يمكن تنقيلها كما هي من زمن إلى زمن، أو من ثقافة إلى ثقافة، أو من دائرة نشاط إلى دائرة نشاط. ولكن لا يصحّ أيضًا الاكتفاء بتناقضات لا تذلَّل. بعض القِيَم ليست مركزيّة إلى حدّ ما لتحقيق الإنسان الذاتيّ، في حين يعبّر غيرها عن طموحات الكائن البشريّ الجوهريّة، حتّى إنّ مراعاتها تبدو إلزاميّة: مثلًا، كرامة واحدة لكلّ إنسان. تبدو هذه القيمة أساسيّة، حتّى إنّها تُضفي شكلًا على سائر القِيَم وتحكم فيها. قد لا تمكّن من إثبات ما هو إنسانيّ عمومًا، ولكنّها تمكّن، على الأقلّ، من القول إنّه غير إنسانيّ. وهذا ما تعبّر عنه الصيغة السلبيّة في التحظيرات: «لا تقتل»[٩].

ب - إستقبالنا القِيَم وصِلَتُنا بالله

إنّ النصيب المعترَف به للإنسان في استقبال القِيَم التي يريد بملء حرّيّته أن يُخضع حياته لها، قد يكون مشكلة للذي يعتبر أنّنا لا نستطيع أن نعترف للإنسان إلّا بالحقوق التي ننزعها من الله. نلاحظ إذًا أنّ نشاطًا في مجال القِيَم، حتّى نفهمه كما يجب، لا يخالف عمل الله، خالق الإنسان، وشريك الإنسان في عهد سيناء، والمنكشف في ناسوت المسيح.

إنّ الله الخالق لم يُقم الإنسان في عالم سبق أن وُضعت أخلاقيّته تمامًا، ولم يوفّر للإنسان إطارًا موضوعيًّا من القِيَم الجاهزة، ولم يسلّمه، مع المفاتيح، شفّة مؤتّمة نهائيًّا، بل خلق الله الإنسان وكلّفه أن يصنع معه

(٩) Marie-Jo THIEL et Xavier THEVENOT, *Pratiquer l'analyse éthique*, Le Cerf, 1999 p. 176; et Paul VALADIER, *op.cit.* p. 120.

من العالم عالَمًا إنسانيًا، وأن يُعدّ معه قِيَمه ويرتّبها. وكما قال لنا في سفر التكوين: «إملأوا الأرض»، قال لنا: «تسلَّطوا عليها» (تك ١/٢٨). لكنّ هذه المهمَّة التي عهد بها إليه لا تجعل الإنسان لا خالقَ أولاده ولا خالق قِيَمه. فإنّ الإنسان ينال نفسه وينال العالَم من الله. في إصغاء وتفسير لهذا العالم، كما رأينا، يستخلص الإنسان شيئًا من «المنطق» لتملّكه الأنساء وعلاقاته البشريّة، وبذلك تبرز إلى ضميره قِيَم عليه أن يتبنّاها. مَن يتكلّم على «الضمير» يذكّر بنشاط الإنسان في حوارٍ مع نفسه وبمسؤوليّته، بما أنّ ضميره يُلزمه، ومَن يتكلّم على «الضمير» يذكّر أيضًا بشهادة الله نفسه في صميم الإنسان، وبالتالي يذكّر بحوار الإنسان مع الله.

لا شكّ في أنّ الوصايا العشر لا تُفهم كما يجب، إن اكتفينا بالتشديد على أنّ مدوّنات من هذا النوع كانت معروفة إذاك، ولا يُنهم أيضًا معنى حضور الله في هذه المسألة، إن لم تحفظ، كما ورد في النِلْم «الوصايا العشر»، سوى أنوار اللآزِر البرّاقة العشرة التي تطبع، بشكل مهيب وآمِر، وصايا إلهيّة اعتباطيّة، على لوحات من حجر. والوصايا العشر تُستهلّ بجملة توضح أساسَها: «أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبوديّة» (خر ٢٠/١ وتث ٥/٦)، كما أنّ معنى الوصايا العشر يُعبَّر عنه بوضوح «أكون لكم إلهًا وأنتم تكونون لي شعبًا» (أح ٢٦/ ١٢). وفي الوصايا العشر هذه، يُعبَّر عن كرامة الشخص البشريّ الذي خلقه الله، وعن الواجبات التي يفرضها احترامه على مستوى الخيرات التي تتميَّز بها هويّته في أن يكون روحيًا وجسديًا في صلة بالله والقريب والعالم. إنّ القِيَم المصرَّح بها هكذا لم تنزل من السماء، بل هي «في قلب الإنسان»، كما ورد في الكتاب المقدّس (تث ٣٠/ ١٤)، فيبقى الإنسان مستندًا، ولا شكّ، إلى ضميره. وهي تخرج أيضًا من تاريخ مقدّس تذكّر قراءته المؤمنين بما كانت تربيتهم عن يد الله، ولكنّها أصبحت قِيَم أناس حرَّرهم الله فاحتلّوا مكانهم في إطار عهد. فالله، الذي هو شريك في هذا العهد، سيحترم طبعًا الإنسان في استقلاله الذاتيّ، ولكنّه لن يتركه يُغلق نفسه في نظرته الخاصّة إلى القِيَم. إنّه تعالى ذلك الذي

يُرشد «سأسير أمامك» (خر ١٣/ ٢٠ و٣٣/ ١٤)، وسيرشد الإنسان إلى ما أبعد منه: «كونوا قدّيسين، لأنّي أنا الربّ إلهكم قدّوس!» (أح ١٩/ ٢). كتب بَسْكال: «إنّ الإنسان يتجاوز الإنسان إلى ما لا نهاية». ولكن، ألم يُخلَق الإنسان على صورة الله!

تأوّن الميثاق الذي افتُتح عند خلق العالم في مواثيق العهد القديم، وهو قد تمّ بالمسيح في العهد الجديد. لا يزال المقصود تحريرًا. فقد ورد في (يو ٨/ ٣٦): «إذا حرَّركم الابن كنتم أحرارًا حقًّا». وكذلك لا يزال المقصود عَهدًا يُعرض على حرّيّة الإنسان. فقد ورد في (متّى ١٩/ ٢١): قال يسوع للشابّ الغنيّ الذي كان يبحث لحياته عن ملء معناها: «إذا أردت...». إنّ القِيَم المعبَّر عنها في الوصايا العشر يذكّر بها المسيح صراحة ويؤكّدها: «ما جئتُ لأُبطل، بل لأُكمل» (متّى ٥/ ١٧). لكنّه يضفي عليها سمة باطنيّة وجذريّة في العظة على الجبل، فإنّها طريق مشقوق لكي يسير الإنسان سيرًا أخلاقيًّا يطمح إلى كمالٍ مقياسُه هو الله وحده: «فكونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متّى ٥/ ٤٨). وهنا أيضًا لا ينتزع اللهُ الإنسانَ عن وضعه البشريّ، بل نراه، على عكس ذلك، يتّخذ هو نفسه هذا الوضع البشريّ تمامًا عن طريق تجسّد ابنه، وبذلك يُعيده إلى كماله الأوّل، ويُضفي عليه بعدًا إلهيًّا يستطيع هو وحده أن يُضفيه. هذا، وإنّ تطويبات العظة على الجبل والقِيَم التي تشير إليها يؤيّدها سلوك يسوع في حياته وموته، ويعترف بها الله في قيامة الفصح. وبالتالي، فإنّ تحويل أنفسنا على مثال صورة المسيح هو الهدف الخاصّ الذي تنشده الحياة المسيحيّة، وهو عمل قدرة الروح القدس الناشطة في قلب المؤمن. كتب القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم «أنّ الرسل في يوم العنصرة، لم ينزلوا من الجبل، حاملين، كما فعل موسى، لوحي حجر في أيديهم، بل حاملي الروح القدس في قلوبهم التي أصبحت بنعمته شريعة حيّة»[١٠].

---

(١٠) *In Matthaeum hom. I, 1*, cité par Jean-Paul II, *La Splendeur de la Vérité*, n° 23 Doc. Cath. 7 nov. 1993.

٣ - مكانة القِيَم في التربية

إنّ القِيَم المفهومة على هذه الطريقة واستقبالها من قِبَل الشخص لا يمكن أن تفاجئ مربّين، سواء أوالدين كانوا أم معلّمين. أفليس هدف التربية الأساسيّ أن يُساعد المراهق على أن يأخذ نفسه على عاتقه، وأن يكوّنها لتكون شخصًا، لا في الفراغ، بل، كما رأينا، بكلّ ما يفترض ذلك من علاقات يبنيها بالأشياء وبآخِري الجوار، وبالمجتمع، وبالله نفسه. ويمكننا هنا أن نذكر مجالات مفضّلة في التربية: التربية على الاهتمام بالنفس، والتربية على الاهتمام بالآخر، والتربية على الاهتمام بالعيش المشترك، والتربية على الاهتمام بالعيش مع الله.

أ - التربية على الاهتمام بالنفس

إنّ هذه التربية هي مساعدة المراهق على أن يصبح شخصًا لا ينقصه شيء من جميع القِيَم التي تميّز الشخص: الحرّيّة والتفرّد والوحدة... فإنّ هذه القِيَم تعبّر عن كرامة الشخص وتبرّر احترام النفس، والاهتمام بها، والرغبة في تجاوز النفس. ففي غياب تلك الصفات، قد تغيب الحياة الأخلاقيّة. وفي تربية الشخصيّة تتعاون، على مستويات مختلفة، العائلة ومؤسّسات التعليم.

إلى الوالدين أوّلًا يعود السهر على حفظ كلّ من الحرّيّة والتفرّد والوحدة الشخصيّة عند المراهق، لا بل على تقويتها. فإنّ إسناد الأعمال إليه، وعدم التساهل في قبول عبارات كـ«ليس الحقّ عليّ»، أو «ليس الذنب ذنبي»، هما اعتباره حُرًّا والاعتراف بحرّيّته. والسهر بعد ذلك على تنمية هذه الحرّيّة هو أن توفّر له فرص ممارستها وإثباتها عن طريق اتّخاذ الخيارات والالتزامات التدريجيّة المُرفقة بعبارات كـ«أثق بك»، التي تولّد المسؤوليّة. أمّا مساعدة المراهق على إثبات تفرّده، وعلى التميُّز عند الحاجة، وعلى عدم الاكتفاء بعبارات كـ«جميع الطلّاب يفعلون ذلك في الصفّ» فإنّها تمكّنه أن يصبح هو نفسه. وأخيرًا، فإنّ مساعدة المراهق على تحقيق وحدته، لا في ما يتعلّق بالآخرين وحسب، بل في ما يتعلّق

بنفسه («ليس هذا من طبعك»)، تمكّنه أن يكتشف في نفسه ما لا يُنسب إليها، أو، على كلّ حال، ما ليس هو أفضل ما عنده. أفلسنا هنا أمام مرحلة مهمّة من مراحل اختبار القِيَم وتكوين الشخص: «في إمكانك أن تعمل أفضل من هذا». لكنّ التشديد على إثبات شخصه لا يجوز أن يحملنا على جعل المراهق يغفل عن انتمائه، ككلّ شخص آخر، إلى بشريّة واحدة، إذ إنّ الشموليّة هي أيضًا من قِيَم الشخص. يكفي التذكير بالفائدة التربويّة التي جناها المربّون، قبل سنة، من المعرض «كلّهم أقارب، كلّهم مختلفون».

والمعلّمون يحلّون محلّ الوالدين في ترقية شخص المراهق في جميع أبعاده، وقد تكون التربية على الحرّيّة أغنى التعاليم قِيَمًا، إن ابتعدت عن كلّ تلقين وإن اختلفت باختلاف الموادّ التعليميّة. أفلا يُطلب إلى تعليم الاقتصاد أن يلفت الانتباه إلى أنّ الحياة الاقتصاديّة هي ثمرة قرارات وتصرّفات، وأنّها مجال تعاون ونزاعات يعبَّر فيها عن الحرّيّات؟ أوَليس من المفيد أن نشير إلى أنّ بعض الافتراضات لها دور في البحث العلميّ وأنّ بعض المشاريع توجِّه الأعمال توجيهًا حرًّا؟ هناك طريقة في رواية التاريخ السياسيّ، كما لو كان البشر غير قادرين على تغيير مجراه، كما لو كانت الإصلاحات والانقلابات، في كلّ زمان وكلّ مكان، لا تعبّر عن وجود الحرّيّة الذي لا يُقهر. على التعليم أن يُشير إلى أنّ التكييفات، في جميع المجالات، هي من الأمور التي تُضعف الحرّيّة عند الذين يقبلون الاستسلام، لكنّها تتوجّه إلى حرّيّة الذين يريدون أن يعيشوا كأشخاص.

ب - التربية على الاهتمام بالآخر

إنّ الاهتمام بالآخر ليس خيارًا اختياريًّا عند الإنسان[١١]. فلا يجوز لقاين أن يجيب الله: «أحارس لأخي أنا» (تك ٤/٩)؟ إنّه مسؤول عن هابيل بتحدّره من ثنائيّ واحد، وهو مسؤول عنه، وعن كلّ إنسان، بتلك

(١١) Emmanuel LEVINAS. *Éthique et Inifini*, Fayard, 1982; et René SIMON, *Éthique de la responsabilité*, Le Cerf, 1993.

الأخوّة البشريّة التي تتخطّى إطار القرابة البيولوجيّة. وعلى الذي سأل «مَن هو قريبي؟»، أجاب يسوع بضرب مثل السامريّ الصالح وقال: «مَن تدنو منه» (لو ١٠/ ٣٤). في لقاء الآخر، سلسلة من المواقف تختلف باختلاف شدّة التأثُّر الذي يثيره، وقدر المسؤوليّة التي يتحمّلها، وطول المسافة التي يوفّرها في الاقتراب. لكنّ تلك اللقاءات كلّها، سواء ألقاء قرابة كانت أم جوار أم صداقة أم حبّ، تفترض خروجًا من النفس، واكتشاف غيريّة الآخر واحترامها، لأنّه بدونهما، لا يمكن أن يكون اتّصال، والانتباه إلى عدم وضع الآخر في خدمتنا. ومن بين الحالات التي يتعلّم فيها الإنسان الاهتمام بالآخر، يجب تفضيل الصداقة.

إنّ الصداقة قيمة في أيّ طور من أطوار العمر، لكنّها قيمة بوجه خاصّ في سنّ المراهقة. لكنّها تختلف عن الرفقة التي هي مشاركة في الأشغال نفسها أو في الألعاب نفسها. فهي إصغاء إلى الآخَر ومشاركة في الذات. الصداقة هي اعتراف متبادل بالآخر في مبادلات تكشف كلّ واحد لنفسه. ولذلك توافق الصداقات بوجه خاصّ عمرًا يتثبّت فيه، في آن واحد، الشعور بالذات والحاجة إلى أن يعترف بنا الناس. وهذا الاعتراف ثمين بقدر ما يصدر عن أحد ليس هو من الأقارب. هذا وإنّ الصداقات توفّر استقلالًا ذاتيًا تدريجيًا عن العائلة. فإذا غابت، يُخشى أن يتمّ هذا الاستقلال الذاتيّ الضروريّ في الانطواء على النفس والانعزال. إنّ صداقات المراهقين تعرف الأفراح والآلام؛ لكنّها تعرف المخاطر أيضًا، وهي، بالنسبة إلى الأحداث، فرصة تربية السيطرة على العلاقات البشريّة. وبما أنّها تشجّع الخيارات الشخصيّة، فهي كثيرًا ما تترك الوالدين جانبًا، ولكن، إن أراد الأحداث أن يُطلعوهم على شؤونهم، فلا بدّ من مساعدتهم على النموّ في الصداقة[١٢].

ج - التربية على الاهتمام بالعيش المشترك

إنّ الاهتمام بالعيش المشترك يفترض أن تُراعى قواعد ناتجة من قِيَم

(١٢) Xavier LACROIX, «Les amitiés», in *Croire aujourd'hui*, n° 85, février, 2000.

تجسّد هذه الرغبة. ومن بين هذه القِيَم، نذكر: التضامن، أي قبول تبادل العلاقات بين الأشخاص وبين الأوساط الاجتماعيّة. - والمسؤوليّة، أي الشعور بما نحن سببه بالفعل أو بالإهمال، وبما نحن مسؤولون عنه أمام ضمائرنا وأمام السلطات المعنيّة. - والمبادرة، أي القدرة على الشعور بحاجات أحد المجتمعات وعلى القيام، بناء على ذلك، وعلى قدر الإمكان، بالأعمال الضروريّة. إنّ الجماعات البشريّة كلّها، من الجماعة العائليّة إلى الجماعة الدوليّة، هي مجالات تُراعى فيها تلك القِيَم علانية أو تكون عرضةً للاستهزاء. وبفضل وسائل الإعلام الاجتماعيّ، يشاهد الأحداث دائمًا هذه الأمور، فيستطيعون أن يكوّنوا اقتناعات في شأنها. من المهمّ إذًا أن نساعدهم، بالتفكير، على ترسيخ تلك الاقتناعات، وأن نتهز الفرص التي تمكّنهم من تطبيقها، علمًا بأنّ هذه الفرص كثيرة.

أصبح «العيش المشترك»، في أيّامنا، أكثر ممّا كان في الماضي، عيشًا في مجتمع تعدّديّ[١٣]. وهذا ما يفترض الاستقبال والتفهّم، لا بل العقل النقّاد والتمييز أيضًا. ويعني الاستقبال بذل الجهد للاستعلام والتحليل اللذين يمكّنان من مقاربة وتراتيّة لقِيَم تختلف عن قِيَمنا، وتؤدّي إلى أحكام وتصرّفات ليست أحكامنا وتصرّفاتنا. أمّا التفهّم فهو القبول بأنّ المَسعى الذي نستقبله يمكن أن يكون متماسكًا. إنّ الفكر النقّاد والتمييز يساعداننا على أن نتعمّق في خياراتنا الخاصّة، وبعد أن نقارنها بخيارات الآخرين، نتبنّاها بوعي أو نصحّحها. كلّ مؤسّسة تربويّة هي مكان استقبال وتفهّم، وفي الوقت نفسه، مكان تفكير نقّاد وتمييز، وهناك العديد من الموادّ التعليميّة التي تعزّز هذه الاستعدادات. إنّ التاريخ والأدب والألسنة والموسيقى والفنّ تدلّ، كلّ واحدة في حقلها، على تعدّديّة هي موضع تقدير. أمّا المنطق والرياضيّات فإنّها تُشيد بالدقّة، كما أنّ الفلسفة ترينا كيف أنّ تعدّديّة القِيَم لا تناقض المطلق، بل تفترضه.

---

(١٣) André BARRAL-BARON, *Vivre ensemble avec nos conflits*, Edit. de l'Atelier, 1995.

د – التربية على الاهتمام بالعيش مع الله

إنّ التربية على العيش مع الله هي عمل الله. وهذه التربية موصوفة لنا مطوّلًا في نصوص العهد القديم والعهد الجديد، ولا تزال ناشطة دائمًا في نظر الذي يتأمّل فيها. فالروح القدس يقوم، على وجه خاصّ، بتلك التربية في أعمال الرسل، ويواصل عمله اليوم بحضوره الناشط في عمق أعماق شخص كلّ واحد منّا. نعود الآن إلى موضوعات تفكيرنا في القِيَم، ونكتفي بلفت الانتباه إلى أنّ الروح القدس يزيد قيمة صلتنا بالعالم وصلتنا بالله.

قال يسوع: «إنّ روح الحقّ يُرشدكم إلى الحقّ كلّه» (يو ١٦/١٣). يبتدئ بإرشادنا إلى ملء حقيقة العالم المخلوق، وبالتالي يزيد قيمة صلتنا بالعالم. في نظر المؤمن، وفي ضوء الروح القدس، فإنّ الخليقة كلّها، من دون أن تفقد ثباتها، تحمل حضور الله الناشط، لأنّ الله يتوجّه إلى الإنسان بواسطة الأشياء والكائنات التي يضعها في حياته، وأنّ الإنسان يجيب الله بكيفيّة تصرّفه نحو هذه الأشياء وهذه الكائنات. والعطيّة والكلام الآتيان من الله يزيدان قيمة الصلة بالأشياء، ولكنّهما يزيدان كثيرًا قيمة العلاقات بين البشر، بما أنّ الله، في كلّ واحد منهم، هو نداء وجواب في آن واحد. ومع ذلك، فإنّ ذلك الاستناد إلى الله يترك العلاقات البشريّة في نظامها الخاصّ. ما ورد في إنجيل متّى عن مشهد الدينونة الأخيرة (متّى ٢٥) يخبرنا تمامًا، علمًا بأنّ الذي أصادفه أوّلًا ثمّ أخدمه هو الآخَر، وأنّ حضور المسيح لا يجعله ينتقل إلى الخلفيّة، بل يضفي عليه كلّ أهمّيّته[١٤].

لكنّ الروح القدس يزيد خاصّةً قيمة صلتنا بالله، فإنّه، بجعلنا على مثال صورة المسيح، يحقّق فينا تبنّينا من قبل الآب ويُشعرنا به: ورد في رسالة القدّيس بولس إلى أهل رومة: «إنّ الروح القدس يجعل منكم أبناء بالتبنّي... وهذا الروح نفسه يشهد مع أرواحنا بأنّنا أبناء الله» (روم ٨/ ١٥-١٦). بعد اليوم، تُقدَّم إلينا الحياة الإلهيّة، حياة محبّة الثالوث: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا، الروح الذي ينادي: يا أبتِ» (غل ٤/٦).

---

(١٤) René SIMON, *op.cit.*, p. 250.

«لا يستطيع أحد أن يقول «يسوع ربّ» إلّا بإلهام من الروح القدس» (١ قور ١٢/٣). فكيف تتجسّد الحياة الجديدة تلك في تصرّفنا؟ كتب القدّيس بولس إلى أهل أفسس: «بالأمس كنتم ظلامًا، أمّا اليوم فأنتم نور في الربّ. فسيروا سيرة أبناء النور. فإنّ ثمر النور يكون في كلّ صلاح وبِرّ وحقّ...» (أف ٥/٩). إنّ القِيَم ليست جديدة، فإنّ الوثنيّين كانوا مطّلعين على قائمتها. ولكن ما هو جديد أساسًا هو أنّنا، بعد أن حرّرنا المسيح، أصبحنا متأهّبين لتبنّي تلك القِيَم. كتب القدّيس بولس إلى أهل غلاطية: «قد دعيتم إلى الحرّيّة، بشرط ـ ولحد وهو أن لا تجعلوا هذه الحرّيّة فرصة للجسد... إنّ الذين هم للمسيح يسوع قد صلبوا الجسد وما فيه من أهواء وشهوات. فإذا كنّا نحيا حياة الروح، فلنسِرْ أيضًا سيرة الروح!» (غل ٥/١٣-٢٥). وما يحثّ عليه القدّيس بولس في رسالته إلى أهل أفسس هو، ولا شكّ، الاهتمام بالعيش مع الله: «لا تُحزنوا روح الله القدّوس» (أف ٤/٣٠). فإنّ هذا الاهتمام هو الذي علينا أن نبلّغه الذين نحن مسؤولون عنهم.

إنّ الخواطر الأخيرة تلك في التربية على العيش مع الله تدفعني إلى اختتام هذا العرض في القِيَم الحديثة ومكانتها في التربية، بإضافة بعض الكلمات عمّا يميّز الأخلاقيّة المسيحيّة وبالتالي التربية المسيحيّة. سؤالان يخطران ببالي: هل هناك قِيَم مسيحيّة خاصّة؟ وهل هناك نظام مسيحيّ للقِيَم؟

يصعب علينا أن نؤكّد أنّ هناك قِيَمًا مسيحيّة خاصّة. فلا كيان المسيحيّ ولا عمله يختلفان عن كيانه وعمله كإنسان مع سائر الناس: «فكلّ ما يؤمَر به باسم إله يسوع المسيح يجب أن يكون تبريره ممكنًا من وجهة نظر حقيقة الإنسان، وكلّ ما يفرضه العقل المستقيم يجب أن يكون إثبات تماسكه ممكنًا مع حقيقة الإيمان المسيحيّ»[١٥]. في ما يختصّ بالقِيَم التي تتبنّاها المسيحيّة، فإنّها بُلّغت إيّاها، وهناك أديان أخرى تشارك فيها. ومع ذلك يبقى أنّ مضمون الوحي المسيحيّ يغيّر وجه هذه القِيَم.

(١٥) Xavier THEVENOT, «A propos de la spécificité de la morale chrétienne»,

وكيف يكون الأمر على غير ذلك عند مَن يستقبل أبرّة الله التي منها تستمدّ كلّ أبرّة أخرى اسمها، عند مَن يريد أن يكون على مثال صورة الابن الذي لم يهتمّ بنفسه، بل أسلمها من أجلنا، عند مَن يُدرك أنّ الشخص البشريّ، لكونه مخلوقًا على صورة الله الواحد والثالوث، هو مطلب صلة. وإذا كان المسيحيّ، مع أنّ حياة الثالوث تعمره وتحرّكه، مدفوعًا إلى أن يسمع بتواضع سؤال المسيح: «أوَليس الوثنيّون يفعلون ذلك؟» (متّى ٥/٤٧)، فلكي يعيش عبارة «فما أحراكم!» (لو ١٢/٢٢-٣٢) التي لا حدّ لها إلّا في العبارة «كونوا كاملين، كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متّى ٥/٤٨).

إنّ السؤال: «هل هناك نظام مسيحيّ للقِيَم؟» يستدعي جوابًا لا يقلّ عن الجواب الأوّل دقّة. ليس نظام القِيَم مجرّد تراتبيّة في القِيَم، مع أنّ هناك، كما رأينا، قِيَمًا بعيدة عن المركز وقِيَمًا أساسيّة تضفي عليها شكلًا وتُدينها. فإنّ يسوع نفسه صرّح بأن ليس هناك وصيّة أهمّ من وصيّة محبّة الله ومحبّة القريب (متّى ١٢/٣١). إنّ نظام قِيَم هو مجموعة مدروسة ومتماسكة، لا من القِيَم والقواعد وحسب، بل من الروايات المؤسِّسة أيضًا والنماذج الفرديّة والتأسيسيّة، والممارسات الطقسيّة. والحال أنّ الأخلاقيّة المسيحيّة هي على هذا المثال: إذ إنّها تعرض على المسيحيّ مقاييس حياتيّة وحسب، بل تقليدًا عَبرَ نصوصٍ، ولا سيّما عَبرَ نصوص العهد القديم والعهد الجديد، وتاريخ مقدّس، ونماذج إنشاءات تتوجّه إلى المؤمن، وكنيسة يقرأ فيها المسيحيّ الكتاب المقدّس ويتأمّل فيه، ويَلتقي المسيح في أسراره، ويُكرم القدّيسين ويتّصل بهم في الصلاة، وتعيش جماعة في فرح المسيح القائم من الموت. وبناء على ذلك، لا يمكن أن تُحصر التربية المسيحيّة في تعليم قِيَم نظريّة، لأنّها، قبل كلّ شيء، ثمرة حضور في وسطٍ تغمره الحياة المسيحيّة. وإليكم يعود أن يكون هذا الوسط وسط عائلتكم ووسط مدرستكم.

(ترجمة الأب صبحي حمويّ اليسوعيّ)

=in *Actualiser la morale. Mélanges offerts à René SIMON*, Le Cerf, 1992, pp. 297-316.